
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

أثـــر الثـــورة الفرنسيـــة في الامبراطوريـــة العثمانيـــة

شريـف مرديـن

لم يكن تأثير الثورة الفرنسية المباشر فى الامبراطورية العثمانية ناشئا عن الأيديولوجية الثورية بقدر ما كان ناشئا عن السياسات التى طبقتها الحكومات الفرنسية فى علاقاتها مع العثمانيين . فخلال سنوات عقد الثورة كان من أهم مشاغل العثمانيين تلك التطورات فى العلاقات الدولية ، مثل احتلال بونابرت لمصر ووجود بريطانيا العظمى فى المشرق والعلاقات المتغيرة بين فرنسا والنمسا وروسيا وتركيا . ومن ناحية أخرى، كان «الاندفاع» الايديولوجى الذى افتتنت به أوروبا يلقى من العثمانيين ذوى المناصب الرفيعة احتقارا متغطرسا.

والحقيقة أن ايديولوجية الثورة الفرنسية روجت بعض المثل العليا الجديدة بين بعض سكان الامبراطورية غير المسلمين . وتعد حركة الاستقلال التى أدت الى انشاء اليونان الحديثة مثالا مدهشا لمثل هذه المؤثرات. على أن ترسّخ هذه الأفكار ذاتيا بين المسلمين، وربما تدرس علي أنها برزت بوضوح بعد منتصف القرن التاسع عشر . واذا وسّعنا معنى «المؤثرات» بحيث يشمل الظروف السابقة للثورة الفرنسية ، فلا شك فى أننا نستطيع أن نكتشف خيطا دقيقا يربط بين التنوير العام وبين التجارب الاجتماعية والسياسية المتفرقة التى أجراها المسئولون العثمانيون فى القرن الثامن عشر . وهذا الخيط واه ويصعب اقتفاء مساره : ولا يمكن رسم صورة واضحة نسبيا لتأثير التنوير على الامبراطورية الا اذا بدأ المرء روايته من أوائل القرن الثامن عشر واختتمها بالستينات من القرن التاسع عشر . ومن ثم يمكن استخلاص عدد كاف من الأحداث المتصلة بهذه المؤثرات اللازمة لفهم التغيرات المتعلقة بالتنوير .

وما ينبغى تأكيده فورا هو أنه حتى الخمسينات من القرن التاسع عشر لم يكن انتشار التنوير فى تركيا ناجما عن معرفة المثقفين العثمانيين لأفكار «التنوير» . بل كان ناجما عن ادراك أن أوروبا الغربية قد اكتسبت وسائل جديدة لفرض إرادتها على البلدان التى ظلت خارج التيار الرئيسى للتطور الثقافى الأوروبي . ويتمثل رأى ثان للعثمانيين فى أن أسلوبا جديدا للمعيشة قد دخل الساحة الأوروبية . وقد يكون تسرب أيديولوجية الراحة والرفاهية الى العاصمة العثمانية مثالا للطريقة التي تسللت بها المؤثرات التى أحدثها هذا الادراك شيئا فشيئا الى تركيا . وأخيرا ، يمكن فى البحث عن التغيرات التى أحدثها التنوير أن توضع فى الاعتبار التيارات الصادرة عن الغرب والمؤثرة فى المنطقة العثمانية – الاسلامية والتى لم يدركها العثمانيون أنفسهم بوضوح فى البداية . وفى عالم ازدادت فيه التأثيرات المتبادلة من

شريف مردين هو استاذ علم الاجتماع فى جامعة البوسفور وعنوانه : P.K.2, Bebek, Istanbul, Turkey
وتعنى ابحاثه الرئيسية بمجال علم الاجتماع وتاريخ الأفكار السياسية والدينية . نشر عديدا من الكتب منها :
The Genesis of Young Ottoman Thoughts (1962).
كما نشر عديدا من المقالات ومنها مقال نشر فى هذه المجلة فى المجلد ٢٩ العدد الثانى ١٩٧٩.

خلال شبكة الاتصالات الاجتماعية التى عززتها الطباعة، تعتبر الضغوط التى فرضت تغييرات فى موقف الرسميين العثمانيين مثالا لمفعول مثل هذه القوى الكامنة . وفى آخر الأمر نشأت عن هذه العملية فى الأربعينات من القرن التاسع عشر «لغة صحافة» تركية جديدة . كما أن احدى خصائص ما قد يوصف بأنه «موقف عثمانى ازاء العلم» تعد وسيلة مناسبة لقياس تدفق المؤثرات الغربية نحو تلك البلاد .

ومن بين أوجه التقدم التي أدى اليها التساؤل بشأن الطبيعة والمجتمع والتى نربطها بالتنوير ، كان للطباعة والتكنولوجيا والتنظيم العسكريين ، والأساليب الجديدة للعلاج الطبي ، والتقدم فى الجغرافيا واعداد الخرائط واستخدام جداول اللوغاريتمات أصداء متفاوتة القوة فى الامبراطورية العثمانية فى القرن الثامن عشر . وقد أظهرت جميع هذه الاستجابات لأوجه التقدم العلمى حساسية مماثلة تجاه التطبيقات العلمية للنتائج التى أسفر عنها التنوير . ومن الجهة الأخرى ، كان العثمانيون يرفضون التفكير العلمي. وفى نهاية القرن الثامن عشر دعى سفير عثماني لحضور بعض التجارب الخاصة بالكهرباء، فصرف النظر عنها باعتبارها مجرد أشياء عجيبة.

ولكى يكون المرء منصفا تماما مع العثمانيين ، ينبغى أن يضيف الى ذلك أن أسلوب التفكير الغربي كان فيه أيضا شئ رفضه العثمانيون . وأفضل تفسير لصدودهم هذا هو أنه كان رفضا لاقامة علاقة بالطبيعة بأسلوب يفرض على الطبيعة البوح بأسرارها بأى ثمن ، بينما يمكن وصف موقف العثمانيين من الطبيعة بأنه موقف الانسجام ومسايرة لايقاعات الطبيعة . وقد ظل هذا الموقف يمثل احدى خصائص الطابع العثمانى التقليدى لوقت طويل. وعندما حاول أحد رجال الدين المستنيرين ، وهو خوجه تحسين ، فى السبعينات من القرن التاسع عشر أن يثبت الوظيفة البيولوجية للأوكسيجين عن طريق افراغ الهواء من برطمان زجاجي وضع داخله حمامة وماتت الحمامة . نبذه المجتمع اذ كانت التجارب التى ينجم عنها موت الحيوانات تعتبر مخالفة للقيم الاسلامية .

ويتمثل جانب هام من استجابة العثمانيين لانجازات الغرب العلمية فى أنهم عندما كانت تواجههم وقائع جديدة وهو ما كان يحدث في كثير من الأحيان كانوا يلجأون لكتبهم التقليدية لمعرفة ما تقوله هذه المراجع عن علم الفلك الجديد أو الممارسات الصيدلية أو النظريات الطبية الحديثة .

وكان استعداد المثقفين العثمانيين لقبول الأفكار الغربية يرجع فى الاساس الى ادراكهم لوجود خلل أساسى فى امبراطورية عانت من هزائم متعاقبة فى ساحة القتال منذ القرن السابع عشر . ومن الملاحظ أن مشاعر القلق هذه كانت تصحبها حركة انتشرت على نطاق واسع للتحول الي العلمانية ، وكان أحد الأدلة عليها هو انخفاض عدد الكتب المنشورة عن الفقه والدين أثناء الفترة التى شغل فيها منصب الوزارة العظمى ابراهيم باشا داماد النوشهرلى (١٧١٨ - ١٧٣٠) (I.A. IX, 234 - 239) . وكانت تجرى في تلك السنوات أيضا التجارب الأولى لادخال النظم الغربية ، وقد برز فيها ابراهيم باشا كشخصية شملت سياساتها جميع جوانب التأثير المبكر للتنوير فى الامبراطورية العثمانية (Uzuncarsili, 1983, p. 522) .

كما أن ابراهيم باشا هو الأول فى سلسلة من موظفى السلطان الذين نشأ نفوذهم فى مجال كاد أن يستولى على سلطة السلطان فيه طبقة من الموظفين . وكان هؤلاء الموظفون فى سبيلهم لاكتساب الخصائص الهرمية للبيروقراطية وكان رئيس الوزراء هو قمة ذلك الهرم. وازدادت سلطة البيروقراطية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهذه المجموعة من أمناء السجلات والمراقبين الماليين ومحررى الوثائق هى التى ظهرت من بينها أهم الشخصيات التى قامت بالاصلاح. وكان ذلك هو أيضا الموقع الذى شكّل فيه مهندسو وصانعو الاصلاحات الشاملة اللاحقة «التنظيمات» (١٨٣٩ - ١٨٧٦).

وكان لتزايد تواتر الاتصالات بين العثمانيين والدبلوماسية الغربية خلال الهزيمتين العسكريتين اللتين تعرضوا لهما (١٦٨٣ - ١٦٩٩ ، ١٧١٦ - ١٧١٨)، بالإضافة الى استعداد الموظفين لتفحص المؤسسات الغربية والذى تمخضت عنه هذه الأحوال ، اثر متضافر فى جعل الموظفين العثمانيين برئاسة الصدر الأعظم فى وضع أفضل بالمقارنة بالموظفين العسكريين أو طبقة رجال الدين . كما كان هناك عامل آخر أعد أمناء سجلات الدولة مسبقا لهذا الدور القيادى ، وهو تعليمهم العلمانى نسبيا .

وكان يوجد في الامبراطورية العثمانية فرعان رئيسيان للتعليم على الأقل . وكان أحدهما ، وهو نظام «المدرسة»، (I.A. VIII 71 - 77) يعمل أساسا كوسيلة لنقل




سليم الثالث (الى اليسار)، الذى تولى الحكم بين عام ١٧٨٩ حتى عام ١٨٠٨، ومحمد الثانى (الى اليمين)، من ١٨٠٩ حتى ١٨٣٩. وقد شجعا إدخال أفكار الثورة الفرنسية الى الامبراطورية العثمانية .

العلوم الدينية الاسلامية . ويتخرج فيه «العلماء» أو من يسمون «فقهاء القانون الاسلامى» . وكان القبول فى هذا النظام قاصرا بوجه عام على السكان المسلمين وكان النظام الموازى له يعمل على تدريب موظفى الدولة ، بمن فى ذلك موظفو الجيش الدائم ، أى الانكشارية . - (E.I. II 210 213) وكان هذا النظام يستند ، مع بعض الاستثناءات، الى التجنيد الاجبارى لصغار الصبية المسيحيين . وكان المجندون ، ولاسيما من يعتزم اعطاؤهم وضعا تنفيذيا ، يتلقون تدريبا يركز على فن الحكم والخبرة العسكرية أكثر من تركيزه على المعارف الدينية . - (E.I. 2 II 1085 1091) وكان هناك دائما بين موظفى «المدرسة» من يرتابون شيئا ما فى أن لدى هذه المجموعة من الموظفين «أهل القلم» ، مع التساوى فى كل الاعتبارات الاخرى، ما يمكن وصفه بأنه موقف متسامح ازاء الدين . اذ كان حكم القانون السارى على العمل اليومى لأهل القلم يتمثل فى «القانون» ، أى الأوامر التنظيمية العلمانية التى تكتسب الصفة القانونية بمراسيم امبراطورية ، بقدر ما يتمثل فى «الشريعة» ، أى القانون الدينى . كما كان الوضع الشخصى لهذه التروس فى آلة الدولة ينظمه أساسا «القانون» ولذلك كان تحت رحمة المشيئة السلطانية .

وبمرور الزمن تغيرت وضعفت مدرسة القصر ، التى كانت مركز التدريب على فن الحكم ، وبعد عام ١٧٠٥ انتهى تجنيد غير المسلمين . بيد أنه ظهر فى «مكاتب» الدولة منهج مماثل للتدريب الداخلى لصالح الموظفين . وفى هذه المجموعة من المكاتب وبين موظفيها لقيت أفكار الغرب استجابة لها .

وكان المستقبل المهنى لابراهيم باشا داماد قد تشكل فى هذه المكاتب وكان تقبله للأفكار الأوروبية ملحوظا . ولمعرفة المزيد عن النظام الذى سبب لتركيا مثل هذه الهزائم المريرة فى ساحة القتال حاول ابراهيم باشا أن يسترعى انتباه رجال الدولة العثمانيين الي التجديدات التى أدخلها الغربيون على تنظيمهم العسكرى .

ويمكننا أن نتابع هذا الموضوع فى تقرير يرجع تاريخه لأوائل أيام توليه منصب الوزارة العظمى (١٧١٨) (Unat, 1940) . وقد صيغ هذا النص فى شكل حوار بين رجل دولة عثمانى يجرى استجوابا وبين ضابط جيش غربى . ومن المرجح أنه أعد مساندة لمبادرات ما كان يسمى «حزب السلام»« الذى كان افتراضه المستحدث هو

أن السلام ، شأنه شأن الحرب ، يمكن استخدامه كوسيلة لتحقيق أهداف الدولة . وهذه هي في حد ذاتها فكرة جديدة مستوحاة من الرؤية الحديثة «لوفاق بين الدول» ولا شك في أنها فكرة لقيها المبعوثون الأتراك الخاصون في اتصالاتهم بالدبلوماسيين الغربيين . بيد أن الحجة الواردة في ذلك الحوار تتعلق الى حد بعيد بالخطوات اللازمة لتجديد آلة الحرب العثمانية . وهو يلخص ، بصورة ما ، الحجج التي سمعها رجال الدولة العثمانيون لبعض الوقت من الخبراء الغربيين بشأن الاصلاحات المطلوبة لوضع الهزائم التي منيت بها تركيا .

وفي هذا الموضوع ترد اشارة من أقدم الاشارات الى أن القوة العسكرية العثمانية لا يمكن تعزيزها عن طريق الاصلاحات العسكرية فحسب ، بل ينبغي أن يدعم ذلك أيضا بإعادة تنظيم الادارة . وكانت الحلقة المفقودة في هذه الحجة هي أن هذه الاصلاحات قد تؤدى بدورها ، طبقا لمنطق التنوير ، الى تنشيط ايجابي للمجتمع المدني والى تكوين الثورة . وقد ظهرت النقطة الخاصة باعادة تنظيم الادارة من جديد في عدد من المناسبات بين عام ١٧١٨، وهو تاريخ «الحوار» وعام ١٨٣٩ ، وهو التاريخ الذى وضعت فيه بالامبراطورية سياسة متكاملة لاعادة التنظيم في المجالين الادارى والعسكرى . وتدل عدة تعليقات أخرى في الوثيقة على أننا ينبغي أن نعتبر أن حركة الاصلاح العثمانية في القرن التاسع عشر المعروفة باسم «التنظيمات» قد جرت بصورة تدريجية للغاية وكانت لها مقدمات واضحة في القرن الثامن عشر . وعلى سبيل المثال ، فإن الجذر «نظم » لكلمة «التنظيمات» يرد بعدد من الأشكال في الحوار . و«النظام» ، هو القاعدة التي أراد الضابط الغربي المزعوم في «الحوار» أن يرسيها في الجيش العثماني . ولهذا المفهوم الجديد للنظام أبعاد فوكودية واضحة أيضا: فأن الضابط الغربي يبين في «الحوار» أن الجيوش الغربية تستخدم أزياء عسكرية ، تتمثل أفيد وظائفها في منع الجنود المشاة من الهروب من الجندية . ومن المؤكد أن هذا المعنى للنظام كان غريبا على العثمانيين .

وأجرى ابراهيم باشا استكشافا آخر كان موضوعه النظام الاجتماعي والسياسي للغرب. فقد أوفد الصدر الأعظم سفيرا الى بلاط فرساى حيث كان الوصى على العرش، دوق أورليان، هو الحاكم بينما كان لويس الخامس عشر لا يزال قاصرا. وكان على ذلك الدبلوماسي التركي أن يقدم الى ابراهيم تقريرا وافيا عن بعثته عند عودته (عام ١٧٢). وكان تعيين سفير يتمتع بكامل الصلاحيات، وكذلك الهدف الخاص للبعثة أمرين كلاهما جديد (Veinstein, 1981, p.22).

ومن تقرير السفير يمكن قياس مدى اهتمامه بتفاصيل الحياة اليومية في فرنسا وتقديره للتجديدات التقنية. أما جداول كاسيني الفلكية التي أعطيت له كهدية ليقدمها الى السلطان، فقد ترجمت في وقت لاحق خلال ذلك القرن. غير أن تقريره يبرز أيضا الى أى مدى اضفى السعي في طلب المتعة والراحة و«هناء الحياة» لونا جديدا على قيم المجتمع الفرنسي خارج فرساى وداخلها على السواء. ويقول محمد افندى بالنص «ان العالم هو سجن المؤمن (المسلم) وجنة الكافر». وسرعان ما جرى بعد ذلك تجريب «الجنة» والتمتع بخيراتها في استانبول.

وتدل السنوات العشر من سلطة ابراهيم باشا داماد على سعي دؤوب لادخال قيم المجتمع المدني الفرنسي في حياة الطبقات الوسطى العثمانية. وقد وصف نقاد هذا التحول الهام عن الاقتصاد في الانفاق الذى كانت تتصف به الطبقة الوسطى العثمانية بأنه تلهف على الترف وتشجيع للحياة الماجنة. ولا تزال سمعة هذا الصدر الأعظم اليوم تحمل آثار حكم معاصريه على اصلاحاته فإنها لم تكن سوى سلسلة من «الحماقات» الباهظة التكاليف. والحقيقة أن برنامجه المعمارى شمل بناء عدد من القصور استجابة لنزوات السلطان أحمد الثالث. ولكنه شمل أيضا ترميم العديد من المباني المتداعية، التي كانت تزين المدينة، وتشييد مبان ومنتزهات عامة. وقد أدخلت المنتزهات تأكيدا جديدا على البعد «الخارجي» للحياة اليومية في الدولة العثمانية، وهو تغيير هام في البنيان الاجتماعي. كما أنشأ مصانع لتشجيع الانتاج المحلى للمنسوجات (Uzuncarsili, 1983, p. 574) وللخزف (Ibid, p. 558) ، ومن المؤكد تماما أن ذلك المشروع كان يعبر عن تأثيرات الروح التجارية الكولبيرتية. وعلى أى حال فان هذا الأسلوب للمعيشة نفسه، المعروف في التاريخ التركي بأنه اسلوب «عهد زهور التوليب»، هو الذى هيأ في نهاية الأمر التبرير الأيديولوجي لثورة حرفيي وتجار بازار استانبول، وهو الذى كلفه حياته (عام ١٧٣٠) (Aktepe, 1958) .

وباستعادة الأحداث السابقة والتأمل فيها يتضح أن أهل البازار كانوا غير راضين عن تقويض أسلوب معيشة

قائم على التدبير فى النفقات وعلى اقتصاد موجه نحو تلبية احتياجات الطبقات الدنيا. وما كان يحدث فى استانبول مثال للاوضاع التى طرأت فى عدد من النظم الاشتراكية فى عصرنا الحاضر حيث أدى الاتجاه الجديد نحو اقتصاد السوق أيضا الى اشاعة الفوضى والاضطراب فى تلبية احتياجات الناس الأقل حظا. وقد يعتبر حكم ابراهيم باشا تجربة غير ناجحة لمحاولة ادخال قيم الحياة البرجوازية فى الدولة العثمانية. وقد كان لهذه التجربة علاقة غير مباشرة بالتنوير، تشبه لحد ما الصلة التى قد توجد بين أشكال الراحة المصورة فى لوحة من لوحات غريز وبين المناخ الفكرى لعصره.

كانت احدى نتائج بعثة محمد افندى هى ادخال الطباعة فى الامبراطورية العثمانية. فقد كان ابن محمد افندى - سعيد افندى - هو الذى حصل، بالتعاون مع ابراهيم متفرقة الذى اعتنق الاسلام، على الاذن بانشاء أول مطبعة فى الامبراطورية العثمانية (١٧٢٧ - ١٧٢٩). على أن أحد الكتب التى طبعها متفرقة، وهو (أصول الحكم فى نظام الأمم، ١٧٣١)، قدّم لمحة أخرى عن المعالم العسكرية والادارية للأمم - الدول الغربية .

واستمرت الاتصالات الدبلوماسية بالغرب طوال العقود الباقية من القرن الثامن عشر. وازداد تواتر البعثات الموفدة الى أوروبا، وكانت التقارير المسهبة للمبعوثين تتضمن كثيرا من الاشارات الى أوجه التقدم المادى والتكنولوجى الأوروبى . (Unat, 1968, 46-218) . ومن بين هذه التقارير يمكن الاستشهاد باشارة مصطفى افندى (١٧٣٦-١٧٣٠.) الى أكاديميه لايدن وقبتها الفلكية (Ibid., 67). وبتقارير سميه (فيينا، ١٧٤٨) عن الكهرباء الاستاتية فى مرصد فيينا (Ibid., 67) . ولدينا أيضا تقرير درويش محمد افندى عن بعثته فى روسيا (١٧٥٥)*. وتقرير أحمد رسمى افندي عن فيينا. وكان هذا الدبلوماسى عائدا من بعثة الى بروسيا (1767; Uzuncarsili, 1983, 617) فكتب أيضا «جغرافية حديثة» (Ibid., 618) . ومن التقارير الأخرى رواية السلاحدار ابراهيم باشا عن روسيا، وقد شملت السنوات ١٧٧١-١٧٧٥، وذكر فيها متحف سان بطرسبورغ وطرقها وجسورها وحديقة الحيوانات وقصر بتروف والترسانة والنظام الروسى للجمارك والضرائب والتنظيم البريدى . واكثر هذه المذكرات اثارة للاهتمام الوصف المفصل للامبراطورية النمساوية الذى قدمه أبو بكر راتب افندى (١٧٩١-١٧٩٢). وسنرى أنه كان متورطا أيضا فى أنشطة أشد خطرا من ذلك .

وكان المبعوثون الذين وافقت بعثاتهم سنوات الثورة الفرنسية هم محمود رائف افندى وموراللي سيد على افندى (فرنسا، ١٨٩٧) وغالب افندى (فرنسا، ١٨.٢).

وظهرت ايضا فى الامبراطورية العثمانية خلال القرن الثامن عشر بعض جوانب التقدم العلمى الذى أدى اليه التنوير . وقد أعد ابن محمد افندى، المبعوث الى فرنسا، قاموسا للعقاقير الطبية وعلم النبات وعلم الحيوان (Uzuncarsili, 1983, 532) وترجمت مؤلفات باراسيلسوس (Ibid., p. 530) وكتب وسيم أفندى خلاصة وافية قارن فيها بين الطب «الجديد» والطب «القديم» ومخطوطا عن وصفات صيدلية انتقاها من نص مجرى (١٧٥٩ ؟، ١٧٨١؟) (Ibid., 531) . وترجمت فى عام ١٧٧١ «الأقوال المأثورة» لبوراف (Ibid., 532) . وفى مجال الرياضيات ترجم ابراهيم متفرقة، مؤسس الطباعة فى تركيا، «كوسموغرافيا» كيلر وترجمت في وقت لاحق من القرن جداول لالاند (Ibid., 537) . وترجمت جداول كاسينى الفلكية فى عام ١٧٧. (Ibid., 537) . ولم تكن كل هذه المؤلفات متاحة الا فى شكل مخطوطات وهو ما حد بشدة من فعاليتها، ولابد من أنه كان يوجد عدد من العوامل التى حالت دون تطور الطباعة بحرية، نظرا لأن أنشطة مطبعة متفرقة اقسمت ببطء شديد بعد نشر نحو اثنى عشر من المؤلفات المرجعية عن الأحوال فى الغرب والجغرافيا العامة والتاريخ الاسلامى والعالمى. ولم يتم تنشيطها الا بعد عام ١٨٠٠. وقد صدر ٤٠٠ كتاب تقريبا فيما بين عامى ١٧٢٩ و ١٨٣٩ بيد أن الأمر المدهش هو ان النشاط العلمى العثمانى فى معظم القرن الثامن عشر تمثل فى ترجمة عدد من البحوث العلمية المكتوبة باللغة العربية الى اللغة التركية، وقد ظلت تلك البحوث العلمية فى شكل مخطوطات، ولذلك نادرا ما يشار اليها. وربما حفزت المعرفة العامة بجوانب التقدم العلمى للغرب المفكرين العثمانيين على زيادة نشاطهم بحيث يرقى الى مستوى النشاط العلمى المرتفع الذى أدركوا وجوده فى أوروبا، وذلك عن طريق نشر واشاعة المعارف المتراكمة فى ذات ثقافتهم.

وقد ترك أخفاق تجربة ابراهيم باشا داماد في مجال الهندسة الاجتماعية الحديثة أثرا لا يمحى فى الامبراطورية العثمانية. واستمر الانتفاع بالتكنولوجيا والثقافة الغربيتين



كارت بوستال من زمن ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨، احتفالا بالدستور العثماني.

ولكن ذلك كان يتم بحذر وخلسة. ويبدو أن الماسونية كانت احدى القنوات السرية التى استمر عبرها نقل أفكار الغرب الى الامبراطورية العثمانية خلال القرن الثامن عشر. وكان الاصلاح الرسمي يتركز أساسا فى ذلك الوقت على تجديد التنظيم العسكري العثمانى. وأعيد تقييم الخيارات المتاحة للعثمانيين مرة أخرى بعد عام ١٧٧٤، عندما اتضح أن العثمانيين لا يمكنهم الصمود أمام القوى المتضافرة للتكنولوجيا العسكرية الغربية وللشبكات الدبلوماسية.

وفى هذا السياق أشتهر اليونانيون الفناريون «كوسطاء» لنقل الأفكار الغربية. ويمكن عموما القول ان احدى القنوات الهامة لنقل أفكار التنوير الى الامبراطورية العثمانية تمثلت فى رعايا السلطان المسيحيين الكثيرين الذين احتفظوا بصلاتهم بالغرب. ومن بين هؤلاء من يسمون بالفناريين الذين أدوا دورا هاما بهذا الصدد. فعقب فتح القسطنطينية، ظلت المدينة مقرا للبطريركية الأرثوذكسية. واستقرت بعض الأسر البيزنطية القديمة على مقربة منها فى الحى المسمى بالفنار. (EI 2 II, p.880) وعرفت هذه الأسر الشهيرة، في اللغة التركية، باسم «فنرليلر» (الفناريين). وكانوا، بسبب صلاتهم بالعالم المسيحى، قنوات اتصال واعلام قيمة بالنسبة للدولة. وقد اسدى ألكساندر مافروكورداتو (اسكرلتزاده) خدمات هامة للباب العالى خلال المفاوضات بشأن معاهدة كارلوفيتز (١٦٩٩). وكانت المكافأة على هذه الخدمات هى تعيين فناريين آخرين للاضطلاع بمفاوضات دبلوماسية.

وبالإضافة الى ذلك، انتدب من الفناريين حكام لمقاطعتى والاكيا ومولدافيا وعين منهم «تراجمة فى الترسانة البحريه» (I.A. IV, 548-49) ووصل بعضهم فى آخر الأمر الى وظيفة رئيس تراجمة الباب العالى.

وكان أبناء هذه الأسر البارزة يذهبون دائما للدراسة فى أوروبا. وكان هؤلاء الفناريون يعودون الى تركيا حاملين للعديد من أبعاد ثقافة التنوير التى لابد وأن تكون قد أثرت على الموظفين العثمانيين. وقد دافع ألكساندر

مافروكورداتو فى بولونيا، فى عام ١٦٦٤ عن أطروحة بشأن الدورة الدموية استرشد فيها بمؤلفات هارفى (Veinstein, ed. 1981, p.18) . وكان ديمترى كانتمير (١٦٧٣-١٧٢٣) على معرفة شاملة بالثقافة الغربية وهو أول من حاول وضع نوتة (أو تحسين نوتة منسية) للموسيقى التركية (I.A. VIII, 685) . وشغل كونستانتين مافروكورداتو عدة مرات منصب «فويفودا» (حاكم) والاكيا. وخلال فترة شغله لذلك المنصب للمرة الثالثة بين عامى ١٧٣٦ و ١٧٤١ (Uzunçarsili, 1983, 52) صاغ مجموعة من الأوامر من أجل والاكيا ورأى الأوروبيون أنها تنطوى على معالم دستورية . (I.A. IV, 548-49) .

وانتقلت أسر الفناريين فى أوج عزها من حى الفنار وابتنت لها قصورا ضخمة على شاطئ مضيق البوسفور. وانتشر تأثير تلك الأسر على النخبة العثمانية على نطاق واسع عن طريق انتقالها الى هذه المواقع الجديدة وكذلك عن طريق اشتراكها مع الموظفين فى العمل السياسى. ومما يدل على تأثيرها أنه عندما أعدم الصدر الأعظم خالد حامد باشا فى عام ١٧٩١، ربطت قصيدة كتبها أحد أعدائه بين عمله فى وقت سابق لدى أحد الفناريين وبين ما يدعى به من أن رجل الدولة العثمانى ذلك كانت لديه ميول للالحاد والتفكير الحر والماسونية (Uzunçarsili, 1935, p. 244) .

وفى نهاية القرن الثامن عشر أصبح الفناريون أداة نقل أفكار الاستقلال الوطنى والحرية، وبذلك تدهورت علاقاتهم بالباب العالى. وكانت هناك سوابق في الماضى لهذه العلاقات العاصفة بعض الشئ : ففى عام ١٧١١ فر الى روسيا ديمترى كانتمير، «أمير - حاكم» مولدافيا. وفى عام ١٨١٥ اشتركت مجموعة من الفناريين فى تأسيس ومساندة «الفيليكه هتيريا»، وهى جمعية ثورية لها مراكز فى موسكو وبوخارست وتريستا وفى المشرق، وانضمت الى حركة الاستقلال اليونانية.

وفى نظرنا أن خالد حامد شخصية أخرى تعد نموذجا للشخصيات التى أنجبتها دواوين الباب العالى. وكان أحد بناة الاصلاح المخلصين. وخلال توليه لمنصب الصدر الأعظم، الذى شغله عام ١٧٨٢، أعيدت الحيوية الى السياسات الاصلاحية التى جمدت أثناء عهد عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩). ولما نفد صبره ازاء تردد السلطان، اشترك فى مكيدة لخلعه أدى فيها ولى العهد، الأمير سليم، دورا فعّالا. واكتشفت المؤامرة وأعدم خالد حامد، ولكن بعد أن كان الأمير سليم - الذى تمت استمالته كليا للاصلاح- قد أقام روابط اتصال بأوروبا . وفى عام ١٧٨٦، أوفد الأمير عميله السرى اسحاق بك الى فرنسا لكى يخبره عن اتجاه السياسة الأوروبية وجوانب التقدم فى التكنولوجيا والعلم العسكريين. وتراسل الأمير مع لويس السادس عشر عن طريق هذا المبعوث (Uzunçarsili, 1938, 191-246) .

وكان يعاون السلطان فى كتابة هذه المراسلات شخص آخر من دعاة اصلاح البيروقراطيين هو أبو بكر راتب أفندى (Ibid., 197) . وقد أعدم راتب أفندى أيضا فى آخر الأمر. وأدى ارتقاء الأمير سليم للعرش فى عام ١٧٨٩، بصفته سليم الثالث، الى اطلاق العنان تماما لحركة الاصلاح العسكرى ولتعيين كثير من الخبراء الأجانب. ومع ذلك لم يكن لثورة عام ١٧٨٩ تأثير كثير الا بقدر ما أدت الى العثمانيين لست سنوات قبل أن يستطيعوا أن يقرروا ما اذا كان الممثل الشرعى لفرنسا هو الملكية السابقة أم الحكومة الجمهورية .

وعقب الثورة الفرنسية انشقت الجالية الفرنسية فى استانبول الى ملكيين ويعاقبه. وكان الباب العالى مترددا فى مساندة أى فريق من الفريقين حتى حدوث انقلاب «ثيرميدور» (يوليو/تموز ١٧٩٤). غير أن أنشطة اليعاقبة وزرعهم «شجرة حرية» فى حديقة السفارة الفرنسية كانت مناسبة لظهور أول ترجمات لمفهوم «الحرية» الى اللغة التركية. وأصبحت الشجرة تعرف باسم «سربستى أغاسى» وكانت «سربستى» هى أول كلمة استخدمت للتعبير عن فكرة الحرية (Beydilli, 1984, p. 247-314) .

ومما يدل على كيفية تأثير الثورة الفرنسية على العثمانيين خلال سنوات الثورة العشر، الاعلان الذى وجهه الباب العالى الى سكان سوريا الذين كان الفرنسيون قد غزوهم عام ١٧٩٩. وفى هذا الاعلان وردت بين المعتقدات التى نسبت الى الفرنسيين فكرة أن «جميع البشر متساوون فى الانسانية ومتساوون بوصفهم بشرا، وليس لأى شخص تفوق أو ميزة على الآخرين ولكل شخص الحق فى التصرف فى حياته وفى سبل كسب عيشه والتماس رزقه فى هذه الحياة». (Kamal, 1938,p. 108-111) .

وتبين هذه الوثيقة أن احدى طرائق قياس مدى تغلغل الأفكار الغربية، مثلما حدث في الامبراطورية العثمانية، هي متابعة التغيرات في موقف العثمانيين ازاء تساوى البشر وأن «لكل شخص الحق في التصرف في .. سبل كسب عيشه في هذه الحياة». وهذا النوع من مذهب الفعالية حسبما ظهر في هذه الجملة الذي عزز وأصبح السمة المميزة للمفاهيم التحررية العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر. ودخلت المساواة الساحة بعد ذلك الوقت وظهرت كفكرة سائدة في الروايات العثمانية التي تناولت قضية الرقيق المستخدمين في المنازل.

وانتهى عهد سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) بتمرد آخر من المحافظين. وعلى الرغم من أن العثمانيين حاولوا أساسا الاستفادة من خبرة الغرب التقنية خلال سنوات حكمه فان هذه الاتصالات لم تجر بدون احداث بعض الآثار غير المباشرة.

واستمرت تدابير الاصلاح العسكري بصورة متقطعة ما بين نهاية عهد ابراهيم باشا (١٧٣٠) وارتقاء سليم للعرش. أما معهد الرياضيات الذي أسس لتدريب ضباط المدفعية خلال «عهد أزهار التيوليب»، ثم هجر، فقد أعيد انشاؤه في عام ١٧٧٣. وفي عام ١٧٧٦ جرى تحويله الى معهد للهندسة البحرية ووسع نطاقه في عام ١٧٩٤ بحيث شمل الهندسة الأرضية (Beydilli, 1983-87, 395) .

ومن الأصداء الأولى للثورة الفرنسية ما نجده لدى خريج في هذا الفرع التعليمي. وهو سيد مصطفى «الصغير» (Beydilli, 1983-87, p. 415) الذي كان ابن أحد الموظفين. وقد ولد في عام ١٧٧٤ والتحق بمعهد الهندسة في عام ١٧٩٤(Ibid.) وفي وقت لاحق أصبح مدرسا في ذلك المعهد. وفي عام ١٨٠٣ نشر كتيبا كان - من حيث اتجاهاته الرئيسية - دفاعا عن الاصلاحات العسكرية للسلطان سليم الثالث ، بيد انه ورد في النص عدد من الايضاحات الأخرى التي تدل على كيفية تغلغل أفكار التنوير في الامبراطورية من خلال التعليم التقني. وهذا المؤلف مكتوب باللغة الفرنسية، وهو يعطي لمحات مثيرة للاهتمام عن تعليم كاتبه كما يظهر الماما حسنا بفلسفة التنوير ومعرفة جمة بتاريخ العالم حسبما كان يدرّس في الغرب في ذلك الوقت .

ويبين المقطع التالي من مؤلفه «النقد اللاذع للمهندس» القالب العام لأفكاره : «ولدت في القسطنطينية، ومنذ نعومة أظفاري شعرت بميل لدراسة العلوم والفنون ... وسعيت للتعبير عن رأيي المضاد لآراء الفلاسفة الذين يرفضون الاعتراف بميول فطرية لدى الانسان ... باسكال، باسكال الشهير، ألا يمكن اتخاذه قدوة ؟ .. واسترعى اهتمامي الاتقان الذي تتسم به المؤلفات والوثائق التي تأتي الينا من عدد من أقطار أوروبا ولم يترك ذلك لدي شكا بشأن المركز الذي يمكن أن توجد فيه العلوم مجمعة. ونابضة بالحياة والتي كان علي أن أكرس نفسي لها. ولهذا فكرت في أن أقترب منها، وبدون أن أضيع وقتي، عكفت على دراسة اللغة الفرنسية باعتبارها أكثر اللغات عالمية .. وبعد وقت قليل ألفيت نفسي في وضع يمكنني من تصفح مؤلفات ولف وأوزانام وبيليدور ..." (Beydilli, 1983-87 p.448-451) .

وثمة مجموعة من المثقفين في استانبول بقيادة كتوادازاده عارف افندي (Uzunçarsili, 1956) ، وهو رجل دين مثقف، تعد أول مجموعة منتظمة التشكيل يمكننا أن نتابع في اطارها تأثير التنوير. وكان «صالونه» في قطاع بشيكتاش من استانبول ملتقى في العشرينات من القرن التاسع عشر لعدد من الموظفين الذين كانوا يناقشون الرياضيات وعلم الفلك والفلسفة والأدب. وكان المؤرخ شانيزاده، وهو عضو في هذه المجموعة، قد ذكر من قبل في «وقائعه» (١٨١٥) المجالس الأوروبية التي كانت تتألف من «موظفي الدولة» و«ممثلي الرعايا» (E.I. 1 III 590) . وهنا أيضا نجد ارتباطا بين الميل الروحي - الصوفي الذي اتهم به كتوادازاده وبين التفتح على الغرب . بيد أن تلك المجموعة لم تلبث طويلا لأن السلطان الذي قضى من قبل على الانكشارية في عام ١٨٢٦ كان غير راغب في وجود مركز آخر للأنشطة الناقدة للدولة، حتى ولو كان مختلفا تماما عن الانكشارية.

وبالقضاء على الانكشارية، اختفت الهيئة الرئيسية التي صدرت عنها المعارضة لادخال النظم الغربية. وحينئذ أتاح تياران دخول أفكار التنوير الى الدولة العثمانية. وكان التيار الأول يتمثل في العديد من المؤسسات التعليمية الجديدة التي أسست بعد ذلك. ويمكن أن نعد من بينها المعهد الطبي الامبراطوري (١٨٢٧) والأكاديمية العسكرية (١٨٣٤) والمدارس الثانوية الجديدة الأولى (١٨٣٩) (Unat, 1964,42) . غير أنه يرجح أن يكون الأهم من ذلك هو نشر الأساليب التعليمية للكويكر

(الصاحبى) جوزيف لانكستر (١٧٧٨-١٨٣٨). وهذا التجديد التربوى، الذى نقل من الولايات المتحدة الى اليونان، قد حظى بالرواج بين اليونانيين فى استانبول (Berkes, 1964, p. 103) . وكان ذلك النظام يستهدف «تعليم الجماهير مبادئ التعليم الأولى واستخدام المدرسة ميدانا لاعداد المواطنين المسؤولين ولممارسة الحريات الديمقراطية ولتنوير الانسان وتثقيفه وللتعليم الثانوى الشعبى» (Ibid., p. 102) . وقد حول الموظفون الأتراك هذا النظام الى نظام «لتعليم الكبار فى نطاق احدى المنظمات المهنية» وهكذا بذلت أول محاولة عثمانية لتسريع ايقاع تثقيف السكان.

وكان التيار الاصلاحى الثانى فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر هو استمرار قنوات الاتصالات الدبلوماسية التى بدأت خلال القرن الثامن عشر. وهنا أيضا كانت اصداء هذه الاتصالات تتعلق بضرورة اضفاء الملامح التى رآها المبعوثون بوصفها ملامح المجتمع المدنى الأوروبى على الامبراطورية العثمانية فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر أكثر من تعلقها بأفكار الحرية والمساواة والاخاء. وفيما بين الأربعينات وأواخر الستينات من ذلك القرن حدث تحول تدريجى عن الافتتان بالمجتمع المدنى الغربي الى فكرتى الحرية والمذهب الدستورى وفى هذه المرحلة فقط يمكننا أن نقول أن أفكار الثورة الفرنسية قد رسخت فى تركيا.

ومن بين الشخصيات التى أعربت عن اعجابها منذ البداية بالمجتمع المدنى الغربى صادق رفعت باشا، رجل الدولة العثمانى والسفير العثمانى فى فيينا عام ١٨٣٧. وقد أعرب عن أفكاره في عدد من الاقتراحات الاصلاحية التى لم يكن مصدرها واضحا دائما. ويبدو أنها صيغت تحت تأثير أفكار مترنيخ المستمدة من نوع من الاستبداد المستنير - الذى قد يكون مستنيرا أكثر من كونه استبداديا - والذى تميز به حكم النمسا لعشرات السنين .

وكانت النقطة الرئيسية لأهم مشروع اصلاحى لصادق رفعت باشا هى أن الدول الأوروبية الكبرى طبقت نظاما جديدا فى أوروبا منذ انتهاء حروب نابليون. وهذا النظام الذى كان أيضا، حسبما ذكر الباشا يسمى «حضارة»، يستند الى التصميم على المحافظة على علاقات سلمية وودية بين الدول. وكان يستهدف اصلاح ما سببته الحروب من خراب والعمل على زيادة رفاهية جميع الرعايا (Mardin, p. 1962) . واستطرد قائلا ان هذا المفهوم الجديد يبدأ انطلاقا من المقدمة القائلة بأن أى دولة تزدهر متى ما أتيحت لرعاياها الفرصة فى جنى ثمار عملهم اليومى الى أقصى حد. وهذا، بدوره، غير ممكن الا اذا نعم الفرد باستئصال شأفة الحكم الاستبدادى. ثم أوضح رفعت أنه متى ما تأكد للناس أنه لن تتدخل فى حياتهم أية ظروف يؤسف لها ومتى ما حميت الزراعة والتجارة، فإن تلك الدولة ستزدهر حتما. وأضاف ان اتساع الأراضي التى تشملها سيادة الدولة لم يعد مقياسا دقيقيا لقوتها. واذا كان لا يمكن للحرف ولا للتجارة ولا للزراعة أن تتقدم فى دولة تتفشى فيها النزوات الحكومية، فإن الخدمة الحكومية سوف تتدهور فى مثل هذه الظروف. على أن الموظفين اذ يروعهم عدم ضمان البقاء فى وظائفهم، سيحاولون غش الدولة، ويرعون مصالحهم الخاصة ويقبلون الرشوة ويفسدون ادارة البلاد بصفة عامة. ويرى رفعت أن هذا بالضبط هو ما حدث في الامبراطورية العثمانية. وكان لانعدام الأمان السائد فى ذلك البلد، ان عاق الرعية عن تطوير الفنون والحرف التى تقدمت بسرعة بالغة فى أوروبا، كما أدى، من جهة أخرى، الى دفع موظفى الدولة - المفتقرين كذلك الى الضمانات - الى قبول الرشوة والضغط على الرعايا ونهب خزائن الدولة.

وظهرت أفكار مماثلة لأفكار صادق رفعت باشا فى كتابات مصطفى رشيد باشا الذى وضع أول ميثاق دستورى للامبراطورية العثمانية تم اعلانه فى عام ١٨٣٩. وفى ملخص لمحادثاته مع بالمرستون، الذى كان فى ذلك الوقت وزيرا للخارجية، نجد أن رشيد باشا صور النتيجة التى كان يرى أنها ستترتب على اصلاح المؤسسة العثمانية وتدل الآراء التى ابداها على التأثير الواضح لأفكار التنوير :

«وفى نفس الوقت، ومع ادارة المؤسسة الجديدة بحكمة وفطنة، سيحس كل شخص بالمزايا الحقيقية لوجود نظام مستقر راسخ، ومع انحسار الطغيان، سيزداد التعاطف تجاه الحكومة وسيساند الناس بكل ما لديهم من عزم هذا التجديد النافع والمفيد» (Bailey, 1942, p.271) .

ويدل «فرمان جولهان» - الذي أعلن فى عام ١٨٣٩ - وهو أول ميثاق دستورى عثمانى، على تأثير هذه الأفكار. غير أنه ينبغى أن يوضع فى الاعتبار أنه أيضا يحمل آثار نظريات مذهب السياسات الاقتصادية الرامية الى دعم سلطة الحاكم أو الاستبداد المستنير الذى صدر عنه.

وقد ساندت هذه الأفكار اصلاح المؤسسات الاجتماعية والسياسية، واعتمدت اعتمادا كبيرا على التغيرات التى ينتظر أن يحدثها انتشار التعليم ولكنها اتسمت ببعض الشيئ بالفتور ازاء امكانيات المشاركة الشعبية فى الحكم.

وكانت العقود بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٧٠ فترة أحدث خلالها الاصلاح تغيرات عميقة فى المجتمع العثمانى.

وقد أعيد تنظيم التعليم والتدريب العسكرى والادارة والضرائب، وكذلك الهيئة القضائية، وتم بصورة تدريجية اقصاء فقهاء القانون الاسلامى من موقعهم التقليدى كمربين وقضاة واداريين. ولكن هذه الاصلاحات كانت من أجل الشعب. وفى الوقت ذاته كان على الامبراطورية العثمانية مواجهة مولد القومية بين مجموعات السكان من رعاياها ومواجهة الاضطراب الشديد الذى أحدثه بين هذه المجموعات من السكان نجاح بعض الحركات الانفصالية. ومن الجائز ان تكون هذه التغيرات هى السبب فى أن ظهرت بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٦٥ فى الامبراطورية العثمانية حركة جديدة حاولت تغيير مسار الاصلاح التركى الى ما قد يسمى اتجاها «نحو اليسار» عن طريق معارضة الاصلاح الذى يجرى من أعلى الى أسفل والاستعاضة عنه بسياسات قائمة على الديمقراطية الدستورية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر. كانت هذه هى حركة «تركيا الفتاة» التى كانت نشيطة في الفترة بين ١٨٦٥ و ١٨٧٥ واضطلعت بدور هام فى صياغة الدستور العثمانى الأول عام ١٨٧٦.

وفى هذه الحالة، صدرت الأفكار الجديدة، عن جيل من موظفي مكاتب الباب العالى، وكان هذه المرة يتألف من الشباب وليس من الموظفين المحنكين.

وقد أسهم الجيل الجديد، الذى ولد نحو عام ١٨٤٠، بقسط كبير فى انشاء الصحافة التركية، وقد مارس الكتابة فيها واستخدمها لنشر أيديولوجياته وكان يعمل حينا فى وظائف الدولة وحينا فى الحملات الصحفية. وكان زعيم الاتجاه الجديد هو إبراهيم شناسى الذى كان قد أوفد الى فرنسا كموظف شاب فى وزارة المالية التى كانت قد انشئت حديثا. وكانت تؤيد أنشطة الحركة الجديدة جماعة مشابهة من المفكرين، أوسع انتشارا فى العاصمة العثمانية وفى طليعتها أيضا بعض الموظفين. وكان كبار رجال الدولة هؤلاء يعبرون عن أفكارهم بأسلوب فكرى أفضل ما يوصف به هو أنه «موسوعى». ويمكن أن نبدأ النظر فى تطوره بأن نحدد بدقة ما أسهم به فيه شناسي الذي كان من صغار البيروقراطيين ولكنه كان مصدر الحركة «الموسوعية».

ولقد بقى شناسى فى باريس خلال الفترة بين عامى ١٨٤٩ و ١٨٥٣. وفى عام ١٨٥٩ نشر أول مؤلف له وهو مجموعة من القصائد. وفى نفس السنة أصدر كتيبا صغيرا بعنوان «ترجمة لبعض القصائد» تضمن مجموعة مختارة من روائع الشعر الفرنسى المترجمة، وفى مقدمتها قصائد لراسين ولافونتين ولكنه اشتمل على مقتطفات قليلة من «تليماك» بقلم فينيلون. وفى عام ١٨٦٠ بدأ شناسى، بالتعاون مع صديقه أغا أفندى، اصدار أول صحيفة تركية مملوكة ملكية خاصة، وهى «ترجمان أحوال» (E.I.XI, 549) . وعقب ذلك أصبح محررا لصحيفة أقوى منها تأثيرا، هى «تصوير افكار» (١٨٥٢). وبعد سنوات قليلة، فى عام ١٨٦٥، أجبر على مغادرة تركيا، وربما كان ذلك لاشتراكه فى مؤامرة سياسية (Ibid., 551) . وعقب ذلك أصبح محررا لصحيفة أقوى منها تأثيرا هى «تصوير افكار» (١٨٦٢) وبعد ذلك قضى معظم حياته العلمية فى فرنسا.

وتتمثل أهمية شناسى الحاسمة فى أن أنصار الحداثة انشقوا الى معسكرين، اثناء حياته وبسبب تأثيره . وبين الداعين الى الاصلاح ظهر انذاك نوع جديد، هو المفكر المصلح. وعلى الرغم من أن المجموعة الجديدة انشئت فى خدمة الدولة العثمانية، فانها كانت تختلف عن دعاة اصلاح الباب العالى في أن لديها أيديولوجية تقدمها. وهذه الايديولوجية هى التى يبدأ فيها ادراكنا آثارا واضحة لأفكار الثورة الفرنسية. وقد عهد شناسى، للتأكيد على المضمون الأوروبي لنظريات القانون الطبيعى، الى اختيار نشر «قانون الامم» بقلم فاتيل كأول سلسلة تصدر فى «تصوير افكار» . وبذلك نقل الى الجمهور التركى اقتناع فاتيل بأن القانون الطبيعى هو الأساس النهائى لجميع المؤسسات القانونية. ونشر بعد ذلك مقالات تصف الحكم البرلمانى الأوروبى. والواقع أن شناسى قد فصل من عمله كموظف فى عام ١٨٦٣ بعد أن كتب مقالة تشرح مبدأ «لا ضرائب بلا تمثيل» (Mardin, 1962, 254) .

وقد شذ شناسى عن غيره باهتمامه بنشر أنباء التغيرات السياسية والاجتماعية، مما أدى به الى اشتقاق لغة تركية جديدة أكثر «شعبية»، وكذلك بتركيزه علي الوقائع – وهو ما قد نسميه واقعيته . ويقول ا.ج.و. جيب ان «شناسى يعتبر بحق المؤسس الحقيقى لمدرسة الأدب التركى الحديثة لانه أول من جاهد بجدية وانتظام لرفع شأن الأدب من .. مجرد لعبة لتسلية المتعلمين لكى يصبح وسيلة للتثقيف الاخلاقى والفكرى للشعب بأكمله»

(Gitt, 1900-1909, V, 28).



مصطفى كمال أتاتورك، زعيم الحركة القومية التركية (١٩١٩ - ١٩٢٢)، مع أقرب رفاقه فى الحركة عصمت اينونو، حوالى عام ١٩٢٥. وقد تولى كل منهما رئاسة الجمهورية، الأول من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٣٨، والثانى من عام ١٩٣٨ حتى ١٩٥٠. وقد أيدا بقوة أفكار التنوير، كما كان من دعاة الفكر الوضعى والسلطة المطلقة للعقل والعلم، وهما مؤسسا الدولة الحديثة فى تركيا، التى قامت على مبادئ السيادة الشعبية، والمواطنة ، والعلمانية .

ولم تكن هذه المساهمات التى قدمها شناسي هى المساهمات الوحيدة التى كانت تغير المناخ الفكرى للعاصمة العثمانية. ففى عام ١٨٦٢ نشر رجل دولة تركى، هو يوسف كامل باشا، ترجمة كاملة لـ «تليماك» بقلم فينيلون. وأوضح تعليق شناسى على ذلك العمل القصد غير الواضح منه، حيث قال : اذ كان كتاب المؤلف الفرنسى الشهير فينيلون «مغامرات تليماك»، يعطى بعنوانه، الانطباع بأنه رواية مغامرات، فإن مغزاه الحقيقى يماثل فى طبيعته قانونا فلسفيا يشمل جميع أعمال حكومة تسعى الى تحقيق العدل والسعادة للفرد. (Mardin, 1962, 241).

وفى عامى ١٨٥٩-١٨٦٠ نشر رجل دولة عثمانى آخر، هو منيف باشا، كتيبا صغيرا يتألف من محاورات مختارة من مؤلفات فولتير وفونتنيل وفينيلون (.Ibid., p.234) . وفى عام ١٨٦١ أسس نفس الشخص الجمعية العلمية العثمانية التى وفرت فى مقرها قاعة للقراءة وصحفا أوربية ومكتبة . ونشرت تلك الجمعية «مجلة العلوم» (مجموعة -إى- فنون).

وكان يدعم جميع هذه الأنشطة الجيشان الفكرى لعدد من «الصالونات» فى استانبول. وكان العلمان اللذان اهتدت بهما هذه الحركات مسؤولين عثمانيين هما عبد الرحمن سامى باشا، أول وزير للتربية فى عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١)، وابنه صوفى باشا. وكما كان الحال خلال التنوير الغربى، كانت هذه «الصالونات» مراكز لمناقشة الأفكار ولحماية «المفكرين» الجدد .

وأتاحت قيادة شناسي وارتفاع مستوى التعليم وازدياد الاتصالات بالغرب، وكذلك الحماية العامة التى قدمتها «الصالونات» ، تبلور حركة معارضة لاصلاحات «التنظيمات نحو عام ١٨٦٥. وقد عرفت باسم حركة «تركيا الفتاة». وعلى الرغم من أن قيادة هذه الحركة كانت متحدة فى معارضتها للأسلوب الصارم بعض الشيء من جانب الأشخاص الذين تبعوا مصطفى رشيد باشا فى أرفع مناصب الدولة فى الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر، فقد كانت فيها عدة تيارات أيديولوجية مختلفة. وفى عام ١٨٦٨ هرب أصحاب حركة تركيا الفتاة الى أوروبا ثم توصلوا الى وضع سياسة متسقة لمناهضة قالب الحكومة الاستبدادى فى الاصلاح ونبهوا جمهورهم فى المجلات التى نشروها فى أوروبا الى الديمقراطية التحررية. غير أنه سرعان ما تخبطت هذه الحركة وتفرق شمل قيادتها. ويدل تنظيم هذه الجماعة على معرفة بأساليب جمعية «الكاربونارى»، بيد أنه يمكن اثبات صلاتها بأفكار الثورة الفرنسية عن طريق النظر فى أيديولوجيتها السياسية.

ويمكن ان تتميز بين أفراد هذه الجماعة ثلاث تيارات على الأقل، وإن كانت هذه التيارات يطغى عليها اعتقاد مشترك، اكثر استرعاء للنظر، بضرورة الحكم النيابى. وكان التيار الأول استمرارا للموقف العثمانى القديم الذى يعتمد على السلطان بوصفه حكما بين شعبه وموظفيه. وكان نصير هذا الحل هو ضياء باشا، أقدم أعضاء حركة تركيا الفتاة. وكان التيار الثانى وسط هذه الجماعة هو الايمان بالله، وليس بالشعب، باعتباره صاحب السيادة. وكانت أفكار على سواوى، وهو رجل دين، قائمة على هذه المقدمة. أما التيار الثالث، فهو نظرية نامق كمال، التى اعتبرت الشعب مصدر السيادة السياسية واقترحت نظاما نيابيا يستند جزئيا الى دستور الامبراطورية الثانية. ومع ذلك كان يراد لهذا الدستور أن يرتكز على مجموع القيم الاسلامية، أى الشريعة، ويبدو أن هذه فكرة تشاطرتها المجموعات الثلاث. ويظهر الارتباط بالثورة الفرنسية بصورة أوضح من ذلك كثيرا فى حالة حسين وصفى باشا الذى حارب الى جانب «كوميونة باريس»، على الرغم من أن مساهمته الفكرية لم تكن ذات شأن.

ومع ذلك ، لقد أيقظت حركة تركيا الفتاة، عن طريق ما أصدرته من منشورات، وعيا سياسيا بنى حول أفكار الفعالية والوطنية والمسؤولية السياسية والديمقراطية الدستورية التى استرشدت بها الحركة التى استهدفت عزل السلطان عبد العزيز فى عام ١٨٧٦ وصياغة الدستور العثمانى فى نفس العام.

وتظهر دوافع الأشخاص الذين عزلوا السلطان في التبرير الذى قدموه لتصرفهم. وكانت العصبة السرية التى نجحت فى هذا الانقلاب تتألف من ضباط برتبة اللواء والأميرال، غير أن أصغر منظميها سنا - وهو سليمان باشا، أحد المعجبين بحركة تركيا الفتاة - هو الذى استطاع التعبير على أفضل وجه عن دوافع المؤامرة. ونرى فى أفكاره شكلا آخر للمثل العليا للثورة الفرنسية.

«على أثر ارتقاء السلطان عبد العزيز للعرش هزت الامبراطورية العثمانية عدة تأثيرات هدامة. وتحمّل المجتمع الاسلامى بأسره ادارة هزيلة للدولة قلت هيبتها وسلطانها .. مع مرور الأيام. وذلك لأن مقاليد الحكم كانت بين يدى مستبد جاهل كان يعتبر القانون الدينى والقانون المدنى كليهما مجرد ألعوبتين. ونظرا لأنه، كان يفضل بصفة عامة الأشخاص الذين هم على شاكلته، فقد كان الضباط وموظفو الدولة الذين عينهم يفتقرون إلى الكفاءة، باستثناء عدد قليل منهم، ولم تكن لديهم المؤهلات اللازمة لممارسة مهام المناصب التى عيّنوا فيها، واذا كانوا قد التحقوا بمدارس

ابتدائية وثانوية فانهم لم يدرسوا بعض المواد الأساسية مثل الحساب والجغرافيا وعلم الحيوان وعلم النبات والجيولوجيا...» (Deveneux, 1979, 11) .

وظل الشعور بأن مفتقدى الكفاءات يبددون قوة الامبراطورية حافزا للعسكريين طوال أعوام عديدة، وكان بصورة ما تكرارا للموقف الأسبق الذى اتخذه رجال الدولة العثمانيون حيال انحطاط الامبراطورية وكان اتباع حركة تركيا الفتاة، ومعظمهم من المدنيين، أكثر ايديولوجية فى نهجهم، ويتضح ذلك على أفضل وجه فى أفكار نامق كمال. ومع ذلك فإن الأيديولوجية فى هذا السياق لا تعنى أيديولوجية الثورة الفرنسية الخالصة. فالاثر الاسلامى فى فلسفته السياسية يدل على التوليف بصورة وثيقة بين مذهبه الدستورى التحررى وبين عناصر الثقافة العثمانية . وقد استخدمت أفكار نامق كمال بمعرفة الجيل الذى أسس الجمهورية التركية فى عام ١٩٢٣، لتعضيد الديمقراطية الشعبية الناشئة حديثا كما كانت وطنيته عونا كبيرا لهؤلاء الأشخاص أنفسهم الذين يعتبرون بناة القومية التركية الحديثة. وقد اتضح فى الواقع أن نامق كمال كان له فى الديمقراطية رأى يتسم بالتعقيد بقدر أكبر مما نسبه اليه الأتراك العلمانيون الحديثون.

فوفقا لرأيه كان الدستور الذى يجب ان يتخذ مثلا يحتذى هو دستور الامبراطورية الثانية للفرنسا. وقد تم التوصل الى هذه النتيجة بأسلوب استبعاد البدائل الأخرى وليس عن طريق الاختيار، فاستبعد كمال دستور الولايات المتحدة لأنها جمهورية واستبعد دستور بروسيا ودستور انجترا لأن كلا منهما يستند جزئيا الى تمثيل أرستقراطية لا وجود ها فى الامبراطورية العثمانية. وبدا لكمال أن الدستور الفرنسى يشتمل على أنسب مجموعة من الضوابط والتوازنات من أجل تركيا، لأنه أمكن أن يهيئ «عهدا سعيدا» فى فرنسا، وهى بلاد ميالة الى الثورة العنيفة بصفة عامة. غير أن هذا كان اقتراحا كتب قبل زوال الامبراطورية الثانية فى وقت كان يجرى فيه عدد من الاصلاحات بفرنسا فى ما سمى «الامبراطورية التحررية».

وكان نامق كمال متمسكا بتقاليد الفكر العثماني الذى ربط بين انهيار الامبراطورية وبين التراخى في مراعاة القانون الدينى. وكان معارضا بقوة للحركة الرامية الى علمنة القانون والتى كانت احدى السمات البارزة للتنظيمات.

ومن بين جميع أفكاره التى يمكن أن تعزى الى تأثير أوروبا، كان مفهومه للتقدم هو اوضحها. ويظهر هذا المفهوم فى المقالات التى كتبها عند عودته بعد اقامته فى أوروبا. وقد كرس الكثير من هذه المقالات لبيان الفوائد العلمية التى جناها الأوروبيون من مواقفهم ازاء الأسرة وازاد مواطنيهم الآخرين. وكان يصحب ذلك دائما تقريبا موضوع اللحاق بالغرب فى سباق التقدم المادي . وكان يرى ان التقدم جزء من دينامية كل مجتمع وأنه يعبر عن قدرة الأفراد الطبيعية على التقدم. واحتج كمال بأن أوروبا أحرزت نجاحها فى هذا السباق بتخليص قوانينها الخاصة من «الأمور المجردة» والخرافات، وبذلك أرست العلم علي أساس «التجربة» و«الاستدلال». وتمثلت احدى نتائج «اتضاح الحقيقة» هذا فى اعلان حقوق الانسان. وكان كمال يعتقد أن القانون الاسلامى مناسب تماما لإعمال هذه الحقوق وحمايتها .

ومثلما اخترع كمال كلمة «حرية » (Freedom) فى اللغة التركية الحديثة، فانه يرجع اليه الفضل أيضا فى أول استخدام على نطاق واسع لكلمة «وطن» فى الأدب التركى «أرض الآباء». وقد مرت فى هذا المفهوم تأثيرات نشأت على الارجح فى نطاق الرمانتيكية. ومرة أخرى نجد هنا أفكار الثورة الفرنسية التى تعرضت لتحوير فى أوروبا نفسها قبل وصولها الى تركيا. وتحمل مفاهيم كمال عن «الوطن» هذا الطابع. فهو يقول : «لو أن الله خلق عقل الانسان (على غرار) جدول الضرب، وجعل ضميره كمقياس هندسى، لاستحال وجود مفاهيم مثل «الأمة» أو «الوطن» أو «الأسرة».

وقد أشار كمال باقتضاب، فى روايته «انتباه» الى مشكلات الضمير التى يثيرها وجود رقيق ومحظيات بمنازل العثمانيين شخص ملتزم بالأفكار التحررية الغربية. وقد بحث هذه المسألة بمزيد من التعمق أحد المعجبين به من الجيل اللاحق وهو سامى باشا زاده سزاى، فى مؤلفه «سرغوزشت». واتخذت أبعادا أوسع من ذلك بكثير فى أدب السنوات الأخيرة للتنظيمات.

الخاتمة :

ان ما تقدم هو فى الأساس محاولة لملء الفراغات بين النقاط التى تظهر في السياق التاريخى. فليس من الممكن القيام بأكثر من ذلك فى الوضع الراهن للدراسات العثمانية. وخاصة اننا لا نعلم إلى أى مدى تعزى التطورات التى أوضحتها الى تأثير داخلى للاتجاهات التى كانت توجد فى الامبراطورية العثمانية أو الى تأثيرات خارجية. وفيما يتعلق بخصائص العملية التى نقل بها تأثير الثورة الفرنسية الى الامبراطورية العثمانية يمكن أن تتمثل بعض

الآراء المبدئية فيما يلى : أولا، يبدو أن النزعة العلمية العامة للمفكرين العثمانيين كانت عاملا أثر فى نهوج العثمانيين الأولى فى تناول «التنوير». وقد ظهر بعد ذلك اتصال بالأسس الأيديولوجية للثورة فى منتصف القرن التاسع عشر. ويبدو أنه تزامن مع ظهور مجموعة جزيدة من المفكرين يمكن وصفها بصورة عامة بأنها «طبقة المثقفين» العثمانيين الناشئة. وفى هذا السياق، يبدو أن الدراسات المقارنة بشأن ظهور المثقفين تتيح رؤية أساسية متعمقة في مجال دراسة انتشار أفكار الثورة الفرنسية.

وثانيا، أن التداخل بين الثقافات المحلية والأيديولوجيات ذات الصبغة العالمية مثل أيديولوجية الثورة الفرنسية يمثل أيضا مجالا هاما لتقييم تأثير الثورة. على أن المواد اللازمة لدراسة طبقة المثقفين والمواد التى تتناول امتزاج الأفكار الغربية بالتقاليد المحلية متوافرة بالنسبة لروسيا الامبراطورية وحتى بالنسبة للصين، ولكن لا يوجد تحليل مماثل بالنسبة للامبراطورية العثمانية. بيد أنه يمكن طرح نظرية فى هذا الشأن. فقد كان النموذج العثمانى الأساسى للتاريخ والتقدم يرتكز على الرأى القائل بأن المجتمعات فى حركة تأرجح بين «بدويت» و «مدنيت». حيث كلمة «بدويت» تصف مجتمعا تنتظم بنيته أساساً بحسب القرابة (قد تترجم بأنها تعنى المجتمع القبلى) بينما كانت «مدنيت» هى الحضارة . وقد استمد هذا النموذج الهاما من ابن خلدون ولكن لا شك فى أن قدرة مصطفى رشيد باشا على أن يرى ما يريد أخذه من الغرب على أنه «سيفيليزاسيون» (حضارة) لم تكن نابعة من لاشيئ بل كان لها أسس تقليدية. وعلى الرغم من أنه كان من الأسهل على العثمانيين فيما يبدو اعتماد المفهوم الخطى للتقدم فقد فاتتهم فكرة «التتابع الترابطى» للتاريخ. وقد ظل عدم المقدرة على قبول فكرة التتابع الترابطى سمة من أكثر سمات الفكر التركى الحديث استرعاء للنظر وقد أدي ذلك بالمفكرين الأتراك، حتى وقت قريب للغاية، الى ادراك مفرط فى التبسيط وذى بعد واحد للتغير التاريخى. ولا شك فى وجود ارتباطات بين هذا وبين التقاليد التركية القوية الخاصة بالهندسة الاجتماعية والتى جعلتهم يركزون على فوائد التنوير العملية وممارساته التحكمية بدلا من التركيز على بعده التأملى. وكان بامكان فوكو أن يقول إن العثمانيين عرفوا كيف يميزون بين الغث والسمين فى تحليلاتهم الاجتماعية .

المراجـــع

AKTEPE, M.M., 1958. *Patrona Isyani (1730)*. Istanbul: Edebiyat Fakültesi Basimevi.

BAILY, F.E., 1942. *British Policy and the Turkish Reform Movement*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

BERKES, N., 1964. *The Development of Secularism in Turkey*. Montreal: McGill University Press.

BEYDILLI, K., 1984. Ignatius Mouradgea d'Ohsson (Mouradcan Tosunyan). *IUEF Tarih Dergisi*, No. 34, pp. 247-317.

BEYDILLI, K., 1983–7. Ilk Muhendislerimizden Seyyid Mustafa ve Nizam-i. Cedide dair Risalesi. *I.U.E.F. Tarih Dergisi*, No. 13, pp. 387–479.

DEVEREUX, G., 1979. The Feeling of Revolution. Translation of Süleyman Hüsnü Paşa's *Hiss-i Inkilâb* (n.d.).

EFENDI, D.M., 1755. Relation de l'Ambassade du Dervich Mehemmed Efendi à Petersbourg en 1168 de l'higire (J.C. 1754 sic) extraite des annales de l'emporer Ottoman de Vasif efendi et traduite en Turc par f. du Moret. *Journal Asiatique* 8 (February 1826) pp. 118–25.

GIBB, E.J.W., 1900–1909. *A History of Ottoman Poetry*. London: Luzac.

KARAL, E.Z., 1938. *Fransa-Misir ve Osmanli Imparatorlugu 1979–1802*. Istanbul: Milli Mecmua Basimevi.

MARDIN, S., 1962. *The Genesis of Young Ottoman Thought*. Princeton University Press.

PARLATĪR, I., 1987. *Tanzimat Edebiyatinda Kölelik*. Ankara Türk Tarih Kuramu.

UNAT, F.R. (ed.), 1940. Ahmet III Devrine ait bir Islahat Takriri Muhayyel bir Mülakatin Zabitlari. *Tarih Vesikalari*, Vol. I, pp. 107–21.

UNAT, F.R., 1968. *Türkiye Egitim Sisteminin Gelismesine Tarihi bir Bakīs*. Ankara Milli Egitim Basimevi.

UZUNÇARŞILI, I.H., 1935. Sadrazam Halil Hamid Paşa. *Türkiyat Mecmuasi*, vol. V, pp. 216–67.

UZUNÇARŞILI, I.H., 1938. Selim III ün Veliaht iken Fransa kïrali Louis XVI ile Muhabereleri. *Belleten*, Vol. II, pp. 191–250.

UZUNÇARŞĪLĪ, I.H., 1956. Nizam-i Cedid ricalinden Valide Sultan Kethudasi Meshur Yusuf Aga ve Kethudazâde Arif Efendi. *Belleten*, Vol. XX, pp. 485–525.

UZUNÇARŞILI, I.H., 1975. Tosyali Ebubekir Ratib Efendi. *Belleten*, Vol. XXIX, pp. 49–76.

UZUNÇARŞILI, I.H., 1983. *Osmanli Tarihi IV, 2. XVIII Yüzyil*. Ankara Turk Tarih Kurumu.

VEINSTEIN, G. (ed.), 1726/1981. *Mehmed Efendi, Les Paradis des Infidèles*. Trd. J. Galland. Paris: Maspero.